Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تعريف بالكتاب

يقول بريزون فى افتتاح الحوار التالى « اذا افترضنا أن هـــذه الرواية التى كتبت من اجل التسلية ــ وهو ما لا اشك فيه ــ تمثـل واقع الحياة فى روسيا منذ مائة عام مضت ، لكان افتراضنا هذا بعيدا عن العدالة كل البعد ، بل لكان هـــذا الافتراض من الخطـر بمكان ، فلو كانت الحياة فى روسيا منذ مائة عام تشبه ما جاء بقصص جوجول ومسرحياته لكانت روسيا اذن بلدا سعيدا حقا .. »

والرواية التى يدور عليها الحوار كما سنرى هى رواية النفـوس الميتة ، وهو اسم كانوا يطلقونه على الفلاحين الأرقاء الذين كانوا يعيشون على الأرض المزروعة ويباعون معها ، وكانت الدولة تحصيهم مرة كل عشر سنوات وتفرض على مالك الأرض ضريبة يؤديها الى موعد الاحصاء التالى، وقد يموت بعضهم خلال ذلك فيظل المـالك ملزما بأداء الضرائب على احيائهم وموتاهم ، وقد يتلقى المعونة التى تصرف لهم على سبيل الاعانة، وربما باع موتاهم ــ غشا واحتيالا ــ لمصارف الرهون التى تتولى أعمال الصفقات الزراعية ، ومنها المضاربة على اتاوات هؤلاء الأرقاء ومعوناتهم. فكان مجال الحيلة متسعا أمام المغامرين والأفاقين والسماسرة والموظفين عند الاتفاق على كل صفقة كهذه الصفقات الملفقة لأنها تحتاج فى ابرامها الى التزوير والرشوة والمراوغة والنفاق باسم الاحسان أو باسم الاصـلاح الزراعى واصلاح الحياة الاجتماعية على التعميم ، وقد ظهرت براعـة جوجول فى عرض أكاذيب هذه الحياة ذلك العرض الساخر الذى يعج بالضحك المدوى من دعاوى الماكرين والمرتشين والمفتونين بمظاهر الجاه الكاذب والمروءة الباطلة ، فجاءت الرواية الطويلة من فصلها الأول الى

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فصلها الأخير ضحكة واحدة مسترسلة على قفا كل دعى من أدعيـــاء المجتمع فى تلك الآونة العصيبة ، وحسبها خطرا ورهبة انها كانت فترة الحمل المكنون التى اختمرت بجميع المصائب والثورات الى أن ولدتها كاملة بين أواخو القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ، الى ما بعد الحرب العالمية الكبرى .

فاذا أخـذ الناقد بالجانب الساخر من تلك الآونة حق له كما قال بريزون أن يعتقد أن بلاد الروس كانت خلالها بلادا سعيدة ضاحكة ، وأن الضحك هنا علامة غير علامة البكاء فى بلاد أخرى يصورها المؤلفون ساجية الطرف دامعة العينين .

ولكنه فى الواقع مسوغ ظاهر أو مسوغ « سطحى » قريب الأجل لا يثبت على الظن الا ريثما يعلم القارىء انه يطالع أسلوب الساخر الأكبر أمير الفكاهة فى زمانه ، نيكولاى جوجول ... وان الضحك فى أســلوبه هذا الضاحك الباكى ان هو الا بريق « الدموع المستورة » كما قال .

ان هذا الأديب المطبوع كان ولا ريب أستاذا من أســاتذة الفكاهة العالميين ، وكان الروس من أعلاهم الى أدناهم يضحكون لفكاهاته كما كانوا يشعرون بمرارة دموعه ، فكان القيصر يأمر بتمثيل مسرحيته عن «كبير المفتشين» بعد أن علم بمصادرة الرقابة لها سترا لفضائح الموظفين، وكان الصفاقون فى المطابع يتركون صف الحروف بين لحظة وأخــرى ليتبادلوا الضحك من نوادر القصص التى يشتركون فى صف حروفها ، بل كان ضحايا السخرية فى هــذه القصص أول من يضحك من مآزق أبطالها وبطلاتها ، وان كان منهم محتالون ومحتالات ، كالسادة والسيدات الموصوفين والموصوفات فى نوادر تلك الأقاصيص .

وحقيقة المؤلف أفجع من حقيقة المجتمع الذى كان يعرضه للسخرية والفكاهة .

كان « روحا معذبة » تطلب الخلاص ويعلم القارىء الناقد انهــا

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بحثت عنه فى كل باب من ابوابه وكل مظنة من مظانه ، وربما خيل الى ذلك القارىء الناقد أن مؤلفه كان يتلمس بفكره وشعوره كل وسيلة محتملة من وسائل التفريج عن النفوس فيعمد الى تجريبها فى حياته الخاصة كما يعمد الى تجريبها فى الحياة الكتابية ، وهل هناك من وسيلة لتفريج أزمات النفوس المعذبة غير الفكاهة والفن والمتعة الحية والايمان؟

هذه هى الوسائل التى نفرضها فرضا اذا فكرنا فى التماس ابوابه الخلاص من أزمات الروح .

وهذه كلها قد جربها المؤلف واعاد تجربتها ولم يبلغ منها آخر الأمر مبلغا غير الخلاص من عذاب الى عذاب ، حتى انتهت حياته الى الجنون والموت ، وهو دون الخامسة والأربعين .

جرب الفكاهة وخلق منها بقلمه ذلك الزاد الذى كان كافيا فى زمنه وبعد زمنه لتموين الوف القراء بالقهقهة والضحك والابتسام .

وجرب الفن وحاول أن يبرز فيه « مهرجا » على مسارح التمثيل معبرا عن فواجع النفوس قبل أن يعبر عنها فى صفحات القصة أو يسلمها فى مسرحياته لتمثيل نوابغ الفنانين .

وصور متعة الحياة فى سيرة «تاراس بولبا» صاحب الحيوية الصاخبة كما عالج تصويرها فى حياته الخاصة ، فكان فارسه الاكرانى نموذج الحيوان « الانسانى » الجامح الذى يكرع ملء شدقيه من الشراب والطعام كما يكرع شبع نفسه من الخطر والمغامرة ومن النجدة والقسوة وكان يغضب لنخوته فيذود عن جاره وبنى عشيرته ويغضب على ولده الحبيب الى قلبه فيقتله بيمينه .. وتلك هى دفعة الحيوية الجامحة التى حسبها جوجول عوضا شاغلا للنفس الحائرة اذا فاتها أن تخمد سورة العذاب بالتقوى والايمان .

وقد جرب القصائد الدينية تطاف بالمعابد والأديرة فى بلاده ، ورحل الى رومة ليطيف بمعابدها واديرتها ويبحث عن عزاء المسيحية فى ظلال

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كنيسة غير كنيسته ، ورحل الى بيت المقدس لينسى المذاهب والنحل ويتلقى وحى المسيحية الأولى فى مهابط تنزيلها وهدايتها ، فذهبت هذه التجارب واحدة بعد واحدة وبقيت له أزماته الأولى تجددها آفات نفسه وآفات الدنيا من حوله ، حتى أجمع العزم على رفض هذه الدنيا والاعتصام منها باعتزال الناس والزهد فى نعيم العيش ، فأجهز بتعذيبه لنفسه على البقية التى بقيت له من الرشد والعافية بعد كل ما قاساه من ألوان العذاب على يد زمانه وأهل زمانه ، وكانت بوادر الجنون توسوس له فى أعماق ضميره يوم ألف كتابه عن « مذكرات المجنون » فكانت احدى أزماته ــ أو أشد أزماته ــ التى حيرته بين الضحك والبكاء ، وبين الفن والعمل ، وبين الشك واليقين ، الى أن خرج من دنياه وقد قيل انه أخرج منها نفسه بيديه .. فان لم يصدق خبر القائلين بأنه قد بخع نفسه فقد صدق الخبر اليقين انه قضى عليها بالشظف والشدة والجراة على الجوع والبرد فى زمهرير الشتاء .

ولا شك أن هذه الوساوس العنيفة التى طاردته منذ بواكير صباه هى التى كانت توحى اليه على الدوام أن راحة الضمير هى ملاذ الانسان من دنياه قبل كل ملاذ ، وأن أزماته الروحية تبقى له ليعالجها برأيه واعتقاده فلا تنفعه حلوله لمشكلات عصره وقضايا سادته وعبيده ، وقد جهر بذلك فى رسائله التى سماها « الرسائل الى الأصدقاء » وأعلن فيها حرصه على التقاليد المرعية وارتيابه بدعوات الانقلاب والتحطيم ، فاستحق بذلك حملة الناقد بلنيسكى عليه بعد أن كان من أكبر المعجبين بأدبه وأسلوبه ، ولكنه خسر الاعجاب من أصحاب المذاهب ولم يخسر الاعجاب ممن يعرفون للكاتب حقه بمقدار عاطفته الانسانية ومقدار التجاوب بين ضميره وضمائر النفوس الحية على كل مذهب وفى كل بيئة وآونة ، وقد تتلمذ له فى هذه المدرسة الخالدة أدباء متناقضون متعارضون ، منهم « دستيفسكى » الذى كان ينفض عن قلمه قيود المذاهب والدعايات ويقول ان الرواية الروسية بحذافيرها قد خرجت

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

من تحت هذا المعطف الذى حاكه جوجول ، وكان اسم « المعطف » عنوانا أطلقه جوجول على احدى رواياته ولقب من أجلهـــا « بأبى الرواية الروسية » .. وينتمى اليه بالتلمذة كاتب آخر على نقيض دستيفسكى فى منهج القصة والنقدالاجتماعى ، وهو ميخائيل زوششنكو Zoshchenko الذى أدرك الثورة الشيوعية وهو فى الثالثة والعشرين فقاتل فى صفوفها وجاهد من أجلها بسيفه وقلمه ، ولا يستطيع الكاتب أن يجمع بين تلمذة دستيفسكى وزوششنكو الا لأنه يصدر عن النفس الانسانية الخالدة ويصدق البيان عنها كيفما كان الزمن وكيفما تقلبت المشكلات والأزمات بالأمم والجماعات ، وتلك هى « الخاصة » الفنية الأولى التى غلبت على أدباء هذه المجاميع ، فانهم جميعا « نفوس » انسانية لا تنفصل عن نفس انسان بحد من حدود الجغرافية أو التاريخ .

عباس محمود العقاد